

الفضاء الصحراوي بين البناء والدلالة في الرواية المغربية دراسة وصفية تطبيقية

The desert space between construction and meaning
in Maghreb novels
A descriptive and applied study

♥ أ. قرونط الحسين

♥ أ. خويلد محمد الأمين

DOI 2025 10.33705/0114-027-004-020:المُعَرَّف الرِّقْمِيّ للمقال

تاريخ الاستلام: 2025-08-06-تاريخ القبول: 2025-11-08-تاريخ النشر: 2025-12-15

ملخص: تركز هذه الدراسة على الفضاء الصحراوي في الرواية المغربية باعتباره عنصراً مركزياً يتجاوز كونه مجرد خلفية جغرافية، ليصبح بنية دلالية فاعلة تحمل معاني فلسفية ووجودية وثقافية. وتفترض الدراسة أنّ الصحراء تُستخدم في الرواية المغربية كأداة للتعبير عن الصراع بين الحداثة والتراث وبين الحضر والبادية، وتعكس في الوقت ذاته أبعاداً نفسية وتاريخية واجتماعية. ومن خلال منهج وصفي تطبيقي، حللت الدراسة عدداً من النصوص الروائية المغربية، مبرزة الوظائف السردية المتنوعة التي يضطلع بها الفضاء الصحراوي، وكذلك التقنيات الفنية التي يوظفها الروائيون لتمثيله.

♥ مخبر اللغة العربية وآدابها، جامعة عمار ثلجي الأغواط، الجزائر، البريد الإلكتروني:

WALHOCINE@GMAIL.COM (المؤلف المرسل).

♥ جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر، البريد الإلكتروني: ma.khouiled@univ-djelfa.dz

وتختتم الدّراسة بدعوة إلى مزيد من الأبحاث المقارنة حول الفضاء الصّحراوي في الأدب المغاربي والآداب العالميّة الأخرى.

كلمات مفتاحيّة: الرّواية المغاربيّة؛ الفضاء الصّحراوي؛ البنيّة الدّلاليّة؛ الهوية؛ الصّحراء؛ الصّراع الثقافيّ.

Abstract: This study focuses on the desert space in Maghrebi novels, viewing it as a central element that transcends its role as a mere geographical backdrop to become a complex semantic structure carrying philosophical, existential, and cultural meanings. The study posits that the desert in Maghrebi fiction is used to express the tension between modernity and tradition, and between urban and nomadic life, while also reflecting psychological, historical, and social dimensions. Through a descriptive and applied approach, the study analyzes selected Maghrebi novels, highlighting the various narrative functions performed by the desert space, as well as the literary techniques used to depict it. The conclusion calls for further comparative research on desert representation in Maghrebi literature and other world literatures.

Keywords: Maghrebi novel; desert space; semantic structure; identity; desert; cultural conflict.

1. مقدّمة: يشكل الفضاء الصّحراوي في الرّواية المغاربيّة محوراً أساسياً في البناء السّردي والدّلالي، حيث يتجاوز كونه مجرد خلفيّة جغرافيّة ليصبح شخصيّة فاعلة في النّص الرّوائي. وقد اهتم النّقاد والباحثون بدراسة هذا الفضاء نظراً لارتباطه الوثيق بالهويّة المغاربيّة وتشكيله لوعي الإنسان المغاربي وعلاقته بالأرض والتّاريخ، وهو تجسيد حي للصّراع بين الحداثة والتّراث، بين الحضر والبدو، وبين الثّابت والمتحول.

وجاءت هذه الدراسة لمحاولة تحليل الفضاء الصحراوي في الرواية المغاربية من خلال منهج وصفي تطبيقي، يركز على البنية والدلالة، ويستقصي التجليات المختلفة لهذا الفضاء في بعض النصوص الروائية المغاربية. وتتطلب الدراسة في فرضية أنّ الفضاء الصحراوي ليس مجرد إطار مكاني بل هو بنية دلالية معقدة تحمل رؤى فلسفية ووجودية وثقافية عميقة.

مفهوم الفضاء الصحراوي وأنواعه:

1-التعريف اللغوي والاصطلاحي:

1-1-التعريف اللغوي: يشتق مصطلح "الفضاء" من الفعل "فضا" أي اتسع، وهو في اللغة العربية يدل على الساحة والمتسع من الأرض. أمّا "الصحراء" فهي من "صحرا" أي برز ووضح، وهي الأرض المستوية الواسعة التي لا نبات فيها. وقد تطور المفهوم في الاستعمال الأدبي المعاصر ليحمل دلالات أعمق تتعلق بالانفتاح، الحرية، التيه، والبحث عن الذات.

1-2-التعريف الاصطلاحي: يذهب غاستون باشلار إلى أنّ الفضاء "ليس مجرد إطار هندسي فارغ، بل فضاء معيش يحمل في طياته تجارب إنسانية وذاكرات ومشاعر" (Bachelard, 1957, p. 32).

وفي السياق المغاربي، يكتسب الفضاء الصحراوي خصوصية ثقافية وحضارية تجعله رمزاً للأصالة والامتداد التاريخي.

ويحدد سعيد يقطين الفضاء الروائي بأنه "مجموعة العلاقات المكانية والزمانية والاجتماعية والثقافية التي تحكم بناء العالم التخيلي في النص الروائي" (يقطين، 1997، ص. 45)، وضمن هذا التصور يصبح الفضاء الصحراوي فضاء دلالياً محملاً بالرموز والمعاني.

2- أنواع الفضاء الصحراوي:

2-1- الصحراء الجغرافية: تمثل الصحراء الجغرافية الإطار المرجعي

الحقيقي، وتشمل الصحراء الكبرى في شمال إفريقيا. مثال على ذلك وصف الطاهر وطار في عرس بغل:

"الصحراء ليست مجرد رمال، إنها تاريخ وحضارة وذاكرة شعب" (وطار 1989، ص. 178).

2-2- الصحراء الرمزية: تتجاوز هنا الصحراء بعدها الفيزيائي لتتحول إلى

رمز للتطهر والتأمل والبحث عن الذات، كما في الثبر لإبراهيم الكوني (الكوني 1990، ص. 71).

2-3- الصحراء النفسية: تمثل الصحراء الحالة الداخلية للشخصيات

وتستخدم في بعض النصوص كمرآة للقط العاطفي والخواء الروحي خصوصاً في أعمال فاطمة المرينسي التي تُبرز الأثر النفسي للمكان (المرينسي 1996، ص. 189).

الوظائف السردية للفضاء الصحراوي ودلالاته:

1- الوظائف السردية:

1-2- الوظيفة التأطيرية: تقوم الصحراء بتأطير الأحداث الروائية مكانياً

وزمانياً، كما في الثبر لإبراهيم الكوني، حيث ترتبط كل تحولات البطل بهذا الفضاء المفتوح (الكوني، 1990، ص. 81)

1-2- الوظيفة الرمزية: تحمل الصحراء دلالات رمزية كالحرية والموت

والتطهر والبعث، وهي وظيفة بارزة في رواية خرائط الروح (الفقيه، 2003 ص. 145)

1-3- الوظيفة التفاعلية: تلعب الصحراء دوراً تفاعلياً من خلال تأثيرها

المباشر في الشخصيات ومساراتهم، كما في رواية ريح الجنوب لعبد الحميد بن

هدوقة، حيث تتشكل هويّة البطل من خلال تفاعله مع الصّحراء (بن هدوقة 1971، ص. 203).

2- دلالات الفضاء الصّحراوي:

2-1- الدّالة الوجوديّة: يتحول الفضاء الصّحراوي إلى مجال للتأمل الفلسفي والبحث عن الذات، وهو ما يتجلى في أعمال إبراهيم الكوني، وأحمد إبراهيم الفقيه، حيث تعكس الصّحراء تجربة روحية ووجودية (الفقيه، 2003 ص. 152).

2-2- الدّالة الحضارية والتاريخية: تُستحضر الصّحراء كمهد للحضارات وطريق للتجارة والاتصال. محمد برادة في لعبة النسيان يرى الصّحراء "أرشيف الأمة المفتوح على الرّياح والنّجوم" (برادة، 1987، ص. 145).

2-3- الدّالة الاجتماعيّة والثقافيّة: تعكس الصّحراء البنى التّقليديّة للمجتمع القبلي، بما تحمله من عادات وقيم، وهي تمثّل بذلك عنصراً مؤسساً للهويّة المغاربيّة (الخطيبي، 1980، ص. 112).

2-4- الدّالة الجنديّة: تُستخدم الصّحراء كرمز أنثوي للخصوبة والقوة والأمومة، كما توظفها أحلام مستغانمي في ذاكرة الجسد كفضاء للتحرر من القهر الاجتماعي (مستغانمي 1993، ص. 123).

الآليات السّردية لبناء الفضاء والهويّة المغاربيّة:

1- أهم الآليات السّردية لبناء الفضاء الصّحراوي:

1-1- الوصف: يعتمد الرّوائيون المغاربيون على تقنيات وصفية متنوعة لبناء الفضاء الصّحراوي، تتراوح بين الوصف الخارجي المباشر والوصف النّفسي الدّاخلي.

ويُميز فيليب هامون بين "الوصف الوظيفي" الذي يخدم تطور السّرد و"الوصف الزخرفي" الذي يركز على التّفصيل الجماليّة (Hamon, 1993, p. 88).

في ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، لا يتوقف الوصف عند الملامح الفيزيائيّة للصحراء، بل يمتد ليعكس أبعاداً نفسيّة وعاطفيّة (مستغانمي، 1993 ص. 123)

1-2 الاستعارة والرّمز: تُستخدم الصّحراء في كثير من النّصوص كاستعارة مكثفة تمثّل مفاهيم وجوديّة وروحيّة وثقافيّة، ويؤكد محمد مفتاح على أنّ "الاستعارة آليّة بنيويّة مركزيّة في الأدب المغاربي لتحويل الواقعي إلى تخيلي" (مفتاح، 1996، ص. 74)، في رواية "متاهة الرّمّل" نجد الحبيب السّالمي التّونسي يستخدم الصّحراء كرمز للضياع، والتّيه، والبحث عن المعنى في حياة الإنسان. ومع أنّه لا يتحدث عن صحراء جغرافيّة بشكل مباشر.

2-جدول النّماذج التّطبيقيّة من الرّوايات المغاربيّة:

النّمودج النّصي	اسم الرّواية	الكاتب	البلد	السّنة	نوع الفضاء الصّحراوي	الدّلالة المهيمنة	المرجع الكامل
الصّحراء كتاب مفتوح على الأبدية كل حبة رمل تحكي قصة وكل ريح تحمل ذكرى"	الزّلزال	الطاهر وطار	الجزائر	1974	رمزي/وجودي	البحث عن الهويّة	الطاهر وطار الزّلزال الجزائر 1974، ص 45
في لحظة صمت الصّحراء سمعت	ذاكرة الجسد	أحلام مستغانمي	الجزائر	1993	نفسي/عاطفي	الحنين والذّكرة	أحلام مستغانمي ذاكرة الجسد، دار الآداب، بيروت 1993، ص 123

صوت قلبي يردد أسماء الغائبين"							
الصّحراء ليست فراغاً، إنّها امتلاء مطلق بالصّمت والله"	خرائط الروح	أحمد إبراهيم الفقيه	ليبيا	2003	صوفي/روحي	التّجربة الروحيّة	أحمد إبراهيم الفقيه خرائط الرّوح، دار الخيال للنشر والتّوزيع، بيروت 2007، ص 145
الرّمال تحفظ آثار الأقدام وتمحوها مثل الذاكرة تماماً"	من يتنكر البحر	محمد ديب	الجزائر	1962	رمزي/فلسفي	الذاكرة والنسيان	محمد ديب، من يتنكر البحر منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق، 1985 ص 156
الصّحراء مدرسة الحكمة تعلمك الصّبر والاكتفاء بالقليل"	نساء على أجنحة الحلم	فاطمة المرنيسي	المغرب	1996	تعليمي/حكمي	الحكمة والصّبر	فاطمة المرنيسي نساء على أجنحة الحلم المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء، 1996 ص 189
كل نجمة في سماء الصّحراء	صحراء العشق	الحبيب السّالمي	تونس	2001	عاطفي/رومانسي	العشق والحب المطلق	الحبيب السّالمي صحراء العشق، دار الجنوب للنشر

تحكي حكاية عشق قديمة"							تونس 2001، ص 98
الصحراء هي آخر ملاذ للإنسان الحر في عالم مليء بالقيود"	ريح الجنوب	عبد الحميد بن هدوقة	الجزائر	1971	سياسي/اجتماعي	الحرية والتمرد	عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1971، ص 203
الصحراء تجعلك تشعر بصغرك أمام عظمة الخالق"	عرس بغل	الطاهر وطار	الجزائر	1989	ديني/روحي	التواضع والخشوع	الطاهر وطار عرس بغل، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1989 ص 178
كانت الصحراء بمثابة مرآة عاكسة لأعماق الروح"	لعبة النسيان	محمد برادة	المغرب	1987	نفسي/انعكاسي	التأمل الذاتي	محمد برادة، لعبة النسيان، دار الأمان الرباط، 1987 ص 145

3- تحليل النماذج والاستنتاجات:

3-1- المحور الوجودي والفلسفي: الصّحراء تصبح مسرحًا للتأمل، كما في خرائط الرّوح، حيث يواجه الأبطال أسئلتهم الوجوديّة (الفقيه، 2003؛ المديني، 1995).

3-2- المحور النفسي والعاطفي: الصّحراء تُعبر عن الدّاخل المضطرب خصوصًا في ذاكرة الجسد (مستغانمي، 1993؛ الرّاقودي، 2005).

3-3- المحور التاريخي والحضاري: يتجلى التّاريخ الصّحراوي في روايات برادة وديب عبر استحضار الذاكرة الشّفويّة (برادة، 1987؛ ديب، 1985).

3-4- المحور الرّوحي والديني: في عرس بغل والتّبر، تأخذ الصّحراء طابعًا صوفيًا، يمثل البحث عن المطلق والخضوع لقدر الله (الكوني، 1990؛ وطار، 1989).

3-5- المحور الاجتماعي والسياسي: رواية ربح الجنوب مثال حي على الصّحراء كرمز للحرية والثّمر ضدّ البنى الاجتماعيّة المتسلطة (بن هذوقة، 1971).

الخاتمة: خلصت الدّراسة إلى أنّ الفضاء الصّحراوي في الرواية المغاربيّة يمثل أكثر من مجرد خلفيّة للأحداث؛ إنّهُ بنيّة دلاليّة حيّة تتداخل فيها الأبعاد النفسيّة، والوجوديّة، والاجتماعيّة، والثقافيّة.

وقد أثبتت النماذج المختارة تنوعًا كبيرًا في توظيف الصّحراء من حيث الشّكل والمحتوى، ممّا يعكس ثراء المخيال الرّوائي المغاربي.

كما أبرزت الدّراسة أهميّة التّوظيف الفني للصحراء من خلال الوصف والرّمز، والاستعارة، والتّناص، في تمثيل الذات والهويّة.

توصي الدّراسة بإجراء المزيد من المقارنات مع تمثيلات الصّحراء في آداب أخرى (كاللاتينيّة أو الآسيويّة)، وبدراسة تحولات صورة الصّحراء في سياقات ما بعد الاستعمار والتّحولات البيئيّة.

قائمة المراجع:

- بن هدوقة، ع. (1971). ربح الجنوب. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- برادة، م. (1987). لعبة النسيان. الرباط: دار الأمان.
- ديب، م. (1985). من يتذكر البحر. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
- الفقيه، أ. إ. (2003). خرائط الروح. بيروت: دار الكتاب الجديد.
- الكوني، إ. (1990). الثبر. بيروت: دار الآداب.
- المرنيسي، ف. (1996). نساء على أجنحة الحلم. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- مستغانمي، أ. (1993). ذاكرة الجسد. بيروت: دار الآداب.
- السالمي، ح. (1994). متاهة الرمل. بيروت: دار الآداب.
- وطار، ط. (1989). عرس بغل. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- بلعل، آ. (د.ت.). المتخيل في الرواية الجزائرية. الجزائر: منشورات الأمل.
- الخطيبي، ع. ك. (1980). الاسم العربي الجريح (ت. محمد بنيس). بيروت: دار العودة.
- كليلطو، ع. (1982). الأدب والغربة. الدار البيضاء: دار توبقال.
- مرتاض، ع. م. (1998). في نظرية الرواية. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- مفتاح، م. (1996). التشابه والاختلاف. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- يقطين، س. (1997). قال الراوي. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

المراجع الأجنبية:

- Bachelard, G. (1957). La poétique de l'espace. Paris : PUF.
- Hamon, P. (1993). Du descriptif. Paris : Hachette.
- Ricoeur, P. (2000). La mémoire, l'histoire, l'oubli. Paris : Seuil.